ثقافة الاعتذار

١/ ٥/ ١٤٣٦هـ

حياتنا الاجتماعية تكتــظ بألوانٍ من الارتباطــات والعلاقات، هي في مُجمَلها حســنةٌ جميلةٌ، ومما تتميز به المجتمعات الإســلامية -والعربيةُ بشكل أخصّ- عن كثيرٍ من شعوب الأرض.

إلا أن هــذه العلاقات تمــرّ ببعض المنعطفات التــي تؤدّي في بعض الأحيان إلى انقطاعها وتَصرّم حبالها! بســبب عدم مراعاة أحدِ الطرَفين لبعض الأسس والمبادئ التي تقوم عليها هذه العلاقات.

وإذا كان أهمّ هذه الأسسِ: الاحترامُ والتقديرُ المتبادلُ، ومراعاةُ كلٍّ مــن الطرفين حقوقَ الآخر؛ فالعاقل يراعي ذلــك، فهو أدعى لديمومة العلاقة واستمرارها.

ولما كان النقصُ والخطأُ طبيعةً في البَــشَر؛ فمن المهم أن يُبادِر المقصّر والمخطئ للاعتذار، وردمِ الهوّة التي قد يوسّــعها الشــيطانُ بوسوسته، وألوان الظنون التي تأتي في النهاية على بنيان تلك العلاقات من القواعد، فتخرُّ، وتنهارُ، وقــد تكون تلك المودةُ بين قريبَــين أو صديقين قديمي الصداقة.

وردمُ الهوّة التي تنتج عــن موقفٍ ما -قد لا يخطر ببال أحدِ الطرفين موقعه عنــد الطرف الآخر- وقطعُ الطريق على الشــيطان؛ منهجٌ نبويٌّ عظيمٌ، دلّت عليه مواقفُ عدة في الســنَّة، منها ما رواه أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن وغطفــان وغيرُهم بذَرَاريهم ونَعَمهم، ومع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ عــشرة آلاف، ومعه الطُّلَقاء، فأدبروا عنه، حتــى بقي وحده! قال: فنادى يومئذٍ نداءَين، لم يخلط بينهما شــيئًا، قال: فالتفتَ عن يمينه، فقال: «يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: ثم التفتَ عن يســاره، فقال: «**يا معشر الأنصار**» قالوا: لبيك يا رســول الله، أبشر نحن معك، قال: وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: «**أنا عبد الله ورســوله**»، فانهزم المشركون، وأصاب رســولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنائــمَ كثيرةً، فقســم في المهاجرين والطلقــاء، ولم يُعْطِ الأنصارَ شــيئًا، فقالت الأنصار: إذا كانت الشدَّة فنحن نُدعى، وتُعطى الغنائم غيرَنا! فبلغه ذلك؛ فجمعهــم في قُبة، فقال: «**يا معشر الأنصار! ما حديث بلغني عنكم؟**» فسكتوا، فقال: «**يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يذهب الناسُ بالدنيا، وتذهبون بمحمد تحوزونه إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى، يا رســول الله، رضينا، قال: فقال: «**لو سلك الناسُ واديًا، وسلكت الأنصارُ شِعبًا، لأخذت شِعب الأنصار**»[1].

فانظر كيــف بادر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهــو الذي يُوحَى إليــه- إلى قطعِ الطريق على الشيطان، وترضية الأنصار بهذه الكلمات التي تُعادِل غنائمَ الدنيا كلها.

---

(١) رواه مسلم (رقم١٠٥٩).

إن التأخّـــر في الاعتـــذار -فضلًا على التنكّر له بوصفـــه مبدأً- ليس بجيّد، خاصـــةً إذا كانت الصداقـــة أو العلاقة لم تبلغ درجـــةً من المتانة بحيـــث لا تُحوِج للاعتذار، كما قال يحيى بن معاذ: «بئس الصديقُ صديقٌ يُلجئك إلى الاعتذار»، ولكن مَنْ لي بمثل هذا المستوى من الصداقات؟! إنـــه لنادرٌ كندرة الكبريت الأحمر، وقد أحســـن القائل: «الاعترافُ يهدم الاقتراف»[1]؛ أي إنه يمحو أثرَ الخطأ والتقصير.

وفي المقابـــل: فإن على الطـــرَف الآخر -صاحب الحـــقِّ- كالداعي لمناسبة، أو طالبِ المعونة والمســـاعدة؛ أن يكون واسعَ الصدرِ في التماس الأعذار لإخوانه، جاعلًا تلك المقولة الشـــهيرة نصب عينيه: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تُنكِره؛ فالتمس له عذرًا واحدًا إلى ســـبعين عذرًا، فإن أصبته وإلا فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه»[2].

وليســـتحضر مقولةَ ذلك الرجـــل العاقل -جعفر بـــن يحيى- حين اعتذر إليه رجلٌ، فقال له: «قد أغنـــاك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن»[3]؛ لأنّ تَطَلُّبَ الإنسانِ للاعتذار من إخوانه دومًا يوجب التكلف، ويُشـــعِر الأخ بنوع من الغربة عن أخيه وصديقه، والسبب؟ كلمة عابرة، أو زلة لسان!

وليتذكر أحدُنا أنه في حال ما اســـتوقف الآخريـــن عند كلِّ صغيرة وكبيرة؛ فإنه ســـيضطرهم إلى المعاملة بالمثل، وإذا صار التلاومُ والعتابُ سِمةَ العلاقة؛ فقد آذنت بصُرْمٍ!

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ١١٣).

(٢) شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩).

(٣) العقد الفريد (٢/ ١٨).

ولســـتَ بمُسْـتَبْقٍ أخًـا لا تَلُـمُه

على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ؟!

وكان البضعـــة النبوية جعفر بن محمد الصـــادق -رحمه الله- يقول: «أثقل إخواني عليّ: من يتكلّـــف لي وأتحفظ منه، وأَخَفّهم على قلبي: من أكون معه كما أكون وحدي».

ويتأكد هذا المعنى، في حقّ من بوأه اللهُ مكانةً في قومه ومجتمعه؛ كشيخ القبيلة، وشيخ العلم، وأمثالهما؛ إذْ «لا يصلح للصَّدْر إلا واسع الصدر» كما قال بعضُ البلغاء.

وبالجملة: فالنفسُ إذا عُوّدت مكارمَ الخصال، وجاهدتْ على ذلك؛ تطبّعت، واســـتقامت، وإذا كان صرْم الحبال مع الناس سهلًا؛ فإن إبقاء حبال المـــودة، والصبر على تفـــاوت أخلاقهم لا يَقدر عليـــه إلا عظماءُ الرجال، وهكذا كان سيدي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال الله له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].